مجلة المجلات

المنفلوطي والانشاء الجديد — الانتقال من طقس الى آخر — الطب البيطري — الكنيسة الكاثوليكية والكنائس البروتستانتية

للاب توتل اليسوعي

المنفلوطي والانشاء الجديد

تعريباً عن نشرة المدرسة الشرقية في مؤسس لندن (١٩٢٩، ٦١٢) للمستشرق جيب باختصار :

«مصطفى المنفلوطي (١٨٧٦ — ١٩٢٤) هو غصن نبت على جذع نصفه تركي ونصفه عربي. تخرّج في الازهر، ونظم الشعر، وحرر «المؤيد» تحت ادارة الشيخ علي يوسف واظهر في مستهلّ حياته الادبية رحابة صدر وسعة افكار نادر وجودها عند المشايخ. اثر فيه المؤلفون السوريون واقرّ بفضلهم على مصر، ودبت في عروقه حركة الاصلاح الديني، وهي مزيج روح الوطنية الحديثة والغيرة على نشر الاسلام في العالم. جمع في شخصيته طرفي نقيض فصار ملتقى حركتين متقاومتين: حركة التشبث بالقديم وحركة الاندفاع الى الجديد. لسان حاله كتاب «النظرات». اظهره سنة ١٩١٠ لاول مرة، وجدد من بعد طبعاته وزاد موادّه. واستنع فيه وصبر على هجمات الهاجين من حزب المحافظين وحزب المحدثين معاً. وما زال كتابه الى يومنا المؤلف الادبي الاكثر استهواء لقرّاء الآداب العربية.

عسير علينا تفسير جاذبية النظرات للقراء المصريين. لم يكن لها قبلها شبيه ولا مثيل، وفيها ما فيها من نبذات معطرات بعطر الهواء المصري، منجليات بلمعان ضيائه. لقد نال المنفلوطي من سويداء قلوب مواطنيه بانتخاب مواضيعه وانتهاج اساليبه، وهذه الميزات تحلى بها لا عن نظرات عميقة مبتكرة ولا عن

ممارسة التمرن على الكتابة ، ولكن بتصفحه كتاب جنانه فانه امعن النظر في نفسه ثم استودع القرطاس ودائع قلبه المصري ، بلغة وانشاء انما هما لغة وانشاء الدارس الذي اتقن دروسه . ولم يكترث لما يقع في منتوجات قريحته من تقاطع وتناقض بل استسلم الى فطرته بروح صافية وقلب سليم ، ووصف هذا الكون الصغير كما كان في مصر قبل الحرب ، وقد حواه ضمن جوانحه اعني به افكاره الشخصية .

وقف وقفة المصلح الديني وهاجم حزب المحافظين ومقامه المقدس ، الجامع الازهر ، وذم اكرام الاولياء وطعن بالدراويش وجمعياتهم الخ . . . وجاوز الحد حتى اخترق حرمة استاذه محمد عبده وعاتبه على تفسيره القرآن تفسيراً محدثاً ، مع ان المنفلوطي وقع في النقص ذاته . وقد يظهر تحمسه للاسلام تارة فيحكم على المدنية الغربية بالاعدام ، ويحتج على المسلمين تارة اخرى بتقظيعه مذابح الارمن . وانك لتستشف من كل صحيفة من صحائفه آثار المدنية الغربية .

ولعمري ان حكايته عنوان للهزة التي تمشت في اعطاف العالم العربي بتسرب الروح الاوربية فيه ، وذلك ان رجلاً نشأ بمعزل عن الحياة الاوربية ناله ما نال المنفلوطي من تأثير روسو وفيكتور هوغو . وهو مع ذلك لم يتصل بآداب الافرنج مباشرةً وقد جهل لغاتهم ، ولكنه عرفهم بواسطة المؤلفين السوريين ، فاستقى من فرح انطون افكاراً اختمرت في فؤاده ودفعته الى الكتابة باسلوب حذا فيه حذو الافرنسيين في القرن الثامن عشر وفي نهضتهم الادبية المعروفة بالرومانتيسم التي ازدهرت اوائل القرن التاسع عشر ، فاخذ المنفلوطي عن تلك الحركة الفكرية محاسنها وسيئاتها :

حاول وضع قانون لسعادة الشعوب «في مدينة السعادة» ، ودافع عن المسكين والضعيف في مقاله على «الاحسان» واسترسل الى عاطفة التشاؤم في مستقبل البشرية ، وانكر على المجتمع قلة انصافه حتى شك بكل عاطفة شريفة وكل سريرة صالحة .

على ان نبوغ المنفلوطي هو بانشائه اكثر منه بمعانيه .

شعر بحاجة الآداب العربية الى تجديد اساليب الانشاء والاسلوب الانشائي

الحسن لا يتم في نظره الا بحسن تشخيص عواطف الكاتب لقرائه . ولا غنى له في ذلك عن درس نوابغ الفصحاء من العرب لان افتقار الكاتب الى الالفاظ انما علته فقره لمطالعة المؤلفين العرب.

فاطلق المنفلوطي العنان لرائد الفكر ، وذهب على وجهه ينشد المعاني ويشنف الآذان عن غير قيد ولا اسر ، فكانت ثمرة منتوجاته معطرة بروح القديم ونشوة الحديث.

انشاء المنفلوطي حديث بطلاوته وخاصة في القصص ، وحديث في اوضاعه ورسوم مؤلفاتـــه الطويلة . ربما استهل الكلام بمثـل سائر او حكاية عامية واتخذهـا من ثم منوالًا نسج عليه مقالًا . و كثيرًا ما توسع بها فجعلها فصلًا مطولًا.

على انه لم يتق شائبة التكلف فوقع في زلل عاب عليه غيره من الكتاب. فانتقد السجع وهو لم يجتنبه . نعم ان في السجع لزينةً ان وقـــع في مكانه ولعل المحدثين من الكتاب قد افرطوا باهماله ، ولكن اذا حل السجع في غير موضعه اصبح مذمـــةً ، وهذه المذمّة لم يتبرأ منها المنفلوطي تبرأً تامًّا . وسقط في حبائل العادة المألوفة عند كتبة العرب كلهم تقريبًا ، فالتهى برنة الالفاظ ورصفها دون العناية باستنباط الافكار وتسلسل المعاني.

الانتقال من طقس الى آخر

فسح الحقّ القانوني (بند ٩٨) في سبيل الانتقال من طقس الى طقس في شروط معهودة واصدر المجمع المقدس ' في ٦ كانون الاول ١٩٢٨ ' قرارًا يدقق في تحديد الشروط المذكورة. ذلك ما اوحى الى مجلة ابوليناريس (١ الرومانية المخصصة لتفسير الحق القانوني الكنائسي مقالًا صدرته بالقرار المذكور ' وعلقت عليه من الفوائد ما اقتطفنا زبدته للقراء ' قالت:

ان سواد المسيحيين الاعظم تابع للطقس اللاتيني الروماني المنشأ ، والمنتشر في المسكونة . ولكنّ هناك شعوبًا يؤمنون بالمسيح وهم على طقس غير اللاتيني ، وطقسهم دُعي ويُدعى شرقيًا اصلًا وموطنًا . وهو ، على تنوّع اشكالـــه ،

(١ *Apollinaris, Mart.-Apr. 1929, p. 119*

منتشر في العالم اذ لا جهة من الجهات تخلو من تباع طقس من الطقوس الشرقية ، والطقوس الشرقية جذوع ومنها تشتقّ فروع.

فالجذع اليوناني البيزنطي يشتقّ منه الفرع البلغاري ، والروماني ، والملكي والكرجي ، والمسكوبي ، والروثاني.

والجذع الانطاكي يتفرّع منه السريان والموارنة ، والكلدان، والمالابار.

وهناك الجذع القبطي والحبشي . ثم الجذع الارمني . وهذه الجذوع ، كالجذع اللاتيني ، نبتت على اصل شجرة واحدة وهي كنيسة المسيح ، الواحدة بايمانها وتعليمها ، المتشكّلة بمظاهرها ومحاسنها.

ولكل طقس من هذه الطقوس لغته . فيستعملون في الطقوس الشرقية اللغات اليونانية ، والسريانية ، والقبطية ، والعربية ، والارمنية ، والحبشية ، والكرجية ، والسلافية القديمة ، والروثانية . وليس النظام الكنائسي بكامل في كل طقس من هذه الطقوس ، لان بعضها عدد مؤمنيها قليل جداً . واقل الطقوس عدداً هم الكاثوليكيون اللاحقون باديار الكرج ؛ واكثر الطقوس عدداً هم الروثان الكاثوليك ومجموعهم يزاهي الاربعة ملايين . وهؤلاء كلهم ابناء كنيسة المسيح ، على شرط ان يعبروا بطقوسهم عن الايمان والتعليم الذي اوحى به المسيح . ولا يحول تنوّع الطقوس واختلافها دون ان يشمل الاحبار الرومانيون هؤلاء البنين اجمعين بمحبتهم الرعوية الساهرة.

وذكرت مجلة ابولناريس مجهودات الاحبار الاعظمين في مناشدتهم المؤمنين الشرقيين الّا يسعوا الى دواعي الانقسام الآتية من الغايات البشرية ، ومن قلة التمييز بين الشؤون المدنية والروحية : لان كنيسة المسيح ليست بلاتينية ولا يونانية ولا سلافية ولكن كاثوليكية . وان اللاتين واليونان والسلافيين ومؤمني سائر الامم جماء لهم المكانة ذاتها في الكرسي الرسولي . وتوسعت المجلة المذكورة في تأدية الشواهد الدالة على هذه الحقيقة ، وتخطت من ثم الى الكلام في الاسباب القانونية الصوابية الكافية للترخيص بتغيير الطقس فقالت :

يجب ان تكون الدواعي عادلة وذات اهمية قاهرة . لئلّا ينشأ عن التغيير ضرر للطقوس ، ومن ثم للنفوس ، ولئلا تنشب القلاقل والاضطرابات ، وتهيّج العاطفة القومية ، وينفتح الباب الى الاغراض المادية والمصالح العالمية . وانه دفعاً لهذه المخاطر قد تقرّر ان الانتقال من طقس الى طقس لا يتم الّا

عن رضى السلطتين المألوفتين في كلا الطقسين اعني بهما المنتقل منه والمنتقل اليه. وان لم يتم التفاهم والاتفاق على الامر، فيكون ممثل الكرسي الرسولي حكماً بين الفريقين. ومن ثم لم يأتِ القرار المذكور آنفاً بشيء جديد. انما هو مؤيد للبند ٩٨ من الحق القانوني اذ خطّ طريقاً اكثر مناسبة للظروف الحالية وآمن مسلكاً في البلوغ الى خير النفوس، وشدّ عرى الاتفاق والوحدة بين الشرقيين واللاتين.

الطب البيطري

ظهر في مجلة الزراعة الحديثة (٤[١٩٣٩]: ٢٢١) بتوقيع الطبيب البيطري رشاد ريفي مقال على الوسائل الواجب القيام بها للقضاء على امراض الحيوانات السارية ومنها تشجيع الاختصاصيين في طب الحيوان، والاتصال بعلم الطب البيطري الغربي بواسطة بعثات علمية. ذلك انما لا غنى عنه، وليس في بلادنا مدرسة لتخريج الاطباء البيطريين. قال الكاتب:

« من المعلوم والثابت معاً ان امراض الحيوانات السارية لا يمكن مداواتها بالعلاجات، ولهذا فقد سعى العلماء الى ايجاد اللقاحات الواقية والامصال الشافية وقد وفقوا الى هذه المكتشفات النافعة بعد تجارب واختبارات كثيرة قاموا بها في دور الاختبارات والبكتريولوجيا. ودب التنافس بين مختلف الحكومات للسبق في هذا المضمار الشريف فاخذت كل حكومة تنشئ في بلادها معامل للبكتريولوجيا البيطرية لصنع ما عددناه من الامصال واللقاحات ولم تقصر الحكومة العثمانية قبل الحرب العالمية في هذا السبيل، فأسست في الاستانة مختبرات للبكتريولوجيا البيطرية. ودرست قضية فتح فروع لهذه المختبرات في الولايات العثمانية، وكان من المقرّر فتح هذه المختبرات في دمشق وحلب فاعلنت الحرب وماتت الفكرة في مهدها.

اما وان الاشاعات تعلن عن رغبات الحكومات باصلاحات اقتصادية واسعة، اما وان بلادنا بلاد زراعية تعنى بتربية الحيوانات عناية مثلى وتستدر منها ارباحاً غير قليلة، فقد اصبح من واجب هذه الحكومات التفكير في فتح هذه المختبرات ما دامت الامراض السارية تزور بلادنا بين فترة واخرى كما كانت تزورها في السنين السالفة ان لم نقل اكثر

ان اكثر اعمال الاطباء البيطريين في حالة انتشار هذه الامراض اعمال سلبية، فتراهم يكتفون باتلاف الحيوان المصاب الذي لا يرجون شفاء له او ابعاده من الحيوانات الصحيحة. يضطرون الى هــذه المكافحة السلبية اذ لا يوجد لديهم امصال او لقاحات لمصارعة هذه الادواء مصارعة شديدة قاضية، فيسلقهم الناس بسبب ذلك بالانتقاد المرّ ويقال عن مصلحة البيطرة انها ادارة عقيمة لا عمــل لموظفيها الا القيام بما يقوم به الجزارون . واعذارهم ما سردنا وفيها من الوضوح والمنطق ما يقبله كل صاحب نصفة ووجدان، والله يعلم اني لا اقول ذلك انتصاراً لابناء مســلكي ورغبة بالتماس العذر لهم وانما هي الحقيقة الواقعــة التي نرضخ لحكمها القاسي في غالب الاحيان.

واعود فاذكر القرّاء بما كتبته سابقاً عن الطاعون البقري الذي انتشر العام الماضي في سهل البقاع واباد اكثر من سبعة آلاف رأس ذهبت ضحية هــذا النقص في المعدات واللقاحات، ولولا استجلاب المصل من مصر بما امكن من السرعة ومسارعة الحكومة الى اجراء التطعيم لقضي على بقر ذلك السهل الزراعي الزاهر قضاء مبرماً، ولو قدرنا الخسارة بان ضمنا ثمن كل بقرة من البقر البائد عشر ليرات ذهبية فتكون الخسارة سبعين الف ليرة ذهباً . واذا اضفنــا الى هذه الخسارة ما خسره فلاحو الغوطة بسبب انتشار هذا الداء لكان المجموع كبيراً لدرجة نستصغر معهــا ما سيكلفنا مشروع فتح المختبرات البيطرية في البلاد . فالله نسئل ان يلهمنا جميعاً طريق الصواب.»

«فالضعف اصاب الكنائس البروتستانية ...

اما الكنيسة الكاثوليكية فقد انتعشت ...»

نشرت مجلة الهلال (يوليو) مقالاً في تضاؤل الايمان بعد الحرب قابلت فيه بين التأثير الذي احدثته الحرب الكونية في الكنائس البروتستانية وذلك التأثير في الكنيسة الكاثوليكية. واليك بعض اقوالها :

«من الظواهر السيئة التي اعقبت الحرب شيوع المجانة أو عدم الاكتراث نحو الدين . وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في الاقطار الغربية وخصوصاً

تلك الاقطار التي يشيع فيها المذهب البروتستانتي وهي قليلة في الاقطار الكاثوليكية.

فالضعف الذي اصاب الكنائس البروتستانتية في انجلترة واميركا والمانية انما أصابها لتحزبها، أي لانها انضمّت كل منها الى الدولة التي تنتمي اليها. اما الكنيسة الكاثوليكية فقد انتفعت بحيادها سواء أكان هذا في فرنسة أم في ايطالية ام في سائر الدول الكاثوليكية المحايدة. فان حياد هذه الكنائس اوقفها موقفاً نزيهاً زاد كرامتها كما زاد كرامة البابا الذي اتخذ لنفسه خطة صارمة من الحيدة وكانت دعوته الى السلام خالصة لا تشوبها تهمة التحيّز

ان تضاؤل الايمان ظاهر جداً في انجلترة. ففي مدة الحرب عند ما تجند كثير من طلبة الجامعات اقفلت بعض الكليات الدينية بنية فتحها عقب الحرب. ولكن لمّا انتهت الحرب بقيت هذه الكليات مقفلة لأن الطلبة لم يقبلوا عليها، وهي ما تزال كذلك الى الآن. والذي يلاحظ ان عدد المصلين بالكنائس يوم الاحد آخذ في الهبوط الى درجة تقلق جميع رجال الدين في انجلترة

فمن جهة نجد ان عدد طلبة الكليات الخاصة بتخريج القسوس قد نزل من ٢١٠٠٠ طالب تقريباً في اوائل هــذا القرن الى نحو ١٦٠٠٠ طالب في سنة ١٩٢٨. ومن جهة اخرى نجد ان متوسط الحاضرين للصلاة يوم الاحد في سنة ١٨٨٧ كان ١٢٩٩٦ للكنيسة الواحــدة في العام، بينما هو في سنة ١٩٢٧ لا يزيد عن ٣٩٦٠.

والكنائس البروتستانية وخصوصاً الكنائس الانجليكانية تقفل في بعض انحاء انجلترة لقلة المصلين او لعدمهم، بينما الكنائس الكاثوليكية تزداد قوة. فقد كان متوسط الحاضرين للكنيسة الكاثوليكية يوم الاحد ٦٥١١ في سنة ١٩١٤ نصار ١٢٦٠٤ في سنة ١٩٢٧.

ويعزو القسوس الانجليز هذا الانحطاط الديني الى ثلاثة اسباب:

اولاً — هجرة الاهلين من الريف الى المدن او «التمدّن» بمعناه اللغوي.

ثانياً — كثرة الملاهي يوم الاحد وهي بمثابة البدل من الصلاة

ثالثاً — روح العصر اي نزوع الناس الى المادية.

ولكن هذه العوامل الثلاثة لا تؤثر كما رأينا في الكنيسة الكاثوليكية تأثيراً سيئاً . فلماذا ؟

واتخذ الكاتب مثالاً من الحياة السياسية الاوروبية الحاضرة ومن سياسة الاحزاب وتحيزهم الى التطرّف بين محافظين واشتراكيين لينشر الشعب المؤدي بالبعض الى المجانة او عدم الاكتراث نحو الدين، وبالبعض الى اعتناق الكثلكة ، وقال :

« هذا ما زاد الكنيسة الكاثوليكية قوة وانتشاراً فانها تمثل الايمان البحت والتسليم بكل ما جاء في الكتب المقدسة . فهي من هذه الوجهة تشبه احزاب المحافظين في السياسة . »

وانا نثني على ما ابداه الكاتب من الانصاف بحق الكثلكة ، ونقول كلمة نذيل بها مقاله تكملة :

ان الاسباب الثلاثة التي نوه بها المؤلف من انتشار الانكليز وتأثيرها السيء في الدين لم تثقل وطأتها على الكنائس البروتستانية فحسب بل ضربت اجنحتها على الكثلكة ايضاً . ولكن تأثيرها في الكثلكة دون تأثيرها في سائر المذاهب لان الكاثوليك لهم في نظامهم الالهي اعني في وحدة الرئاسة ، ووحدة التعليم ، ووحدة الايمان ، ووحدة الاسرار ، ما يسلحهم ويقويهم على مقاومة روح التمدن بمعناه السيء ، وكثرة الملاهي يوم الاحد ، والنزوع الى المادية .

فان الحبر الاعظم ورؤساء الابرشيات يسهرون كل السهر على تعيين رجال أكفاء للقيام بخدمة النفوس في المدن ، وهؤلاء يسعون جهدهم بالاختلاط في الشعب ولم شعث الواردين الى المدن من الارياف ، ومقاومة ملاهي الاحد بالاجتماعات الدينية والاخويات وخاصة بالاحتفال بالقداس الالهي ، وقد ترى ان لا قرية من القرى في البلاد الكاثوليكية ، فضلاً عن المدن ، تمضي عليها السنة من غير ان يزورها واعظ او مرشد ، فتلقى فيها ارشادات الرياضة ويقبل المؤمنون على الاعتراف بخطاياهم وفيه ما فيه من اماتة النفس وقرع الصدور والندامة وراحة الضمير وسلامة القلب . ثم يلي الاعتراف مناولة جسد الرب والتردد على المعابد والصلوات . انما هي الحياة الدينية الحقيقية مع ما تقتضيه من التضحية بالذات والكفران بالنفس ، تستمدها الكنيسة من رئيسها المسيح المنظور بشخص بطرس وخلفائه وتحيي بها اعضاءها فتقيهم شرور تناول الايمان وتسير بهم الى السعادة الابدية